

سلسلة تلخيص كتاب (8)

أناسي
للعلوم الإنسانية

تلخيص كتاب فلسفة التاريخ

د. عبدالحليم عويس



أناسي للعلوم الإنسانية

1447 هـ - 2025 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مصطلح فلسفة التاريخ:

يتكون مصطلح فلسفة التاريخ من ركنين يضمهما هذا المصطلح، وهما: فلسفة وتاريخ. فأما الفلسفة فتعني: دراسة المبادئ الأول وتفسير المعرفة تفسيرًا عقليًا، وكانت تشمل العلوم جميعًا، واقتصرت في هذا العصر على المنطق والأخلاق وعلى الجمال وما وراء الطبيعة. كما يعرف هذا العلم بمصطلح (تفسير التاريخ) وقد أطلقت كلمة (التفسير) لغويًا بمعنى الإبانة، والإيضاح، والشرح، والإفهام.

ثم تطورت هذه الكلمة وأصبحت عَلَمًا على (علم) بعينه؛ هو علم التفسير. وهو علم -كما يقول التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون-: "يُعَرَّفُ به نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيا ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها... إلى آخره"

وأما كلمة (تاريخ): فتطلق على الإعلام بالوقت، وهو لفظ عربي أصيل، وقيل دخيل مأخوذ من أصل سرياني معناه: الشهر، هذا في أصل وضع اللفظ.

أما في الاصطلاح: فالتاريخ عند العرب (فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها، وموضوعه الإنسان والزمان)، ويرى بعض الكتاب أن التاريخ يشتمل على المعلومات التي يمكن معرفتها عن نشأة الكون كله بما يحويه من أجرام وكواكب ومن بينها الأرض، وما جرى على سطحها من حوادث الإنسان. ويقصُر أغلب المؤرخين معنى التاريخ على بحث واستقصاء حوادث الماضي، كما يدلّ على ذلك لفظ (Historia) المستمد من الأصل اليوناني القديم، أي كل ما يتعلّق بالإنسان منذ بدأ يترك آثاره على الصخر والأرض بتسجيل أو وصف أخبار الحوادث التي أَلَمَت بالشعوب والأفراد.

أما عن المصطلح كوحدة متكاملة، فهو يدلّ على المحاولات التي تبذل لتفسير مسيرة الأيام وحركة الوقائع، وما يكمن وراءها من أسباب وعوامل، وما يعقبها من غايات وأهداف. فهو يتضمن جانبين أساسيين:

وجانب ما وراء الوقائع الظاهرة والحركة المستمرة دون توقف.

جانب التاريخ وهو الوقائع الظاهرة وحركة الأيام وتقلبها.

فلسفة التاريخ قبل العصر الحديث:

لقد كان العلامة المسلم (عبد الرحمن بن خلدون) موفقاً كل التوفيق في تعريفه للتاريخ تعريفاً أقرب إلى (تفسير أو فلسفة التاريخ) -كوحدة متكاملة- منه إلى (التاريخ) كركن من أركان العملية التاريخية وهو الركن الظاهر، أما ركن التفسير فهو الركن الباطن.

فلسفة التاريخ في العصر الحديث:

وعبوراً بهذا الملحظ الذي ذكرناه نستطيع أن نقول: إن (تفسير التاريخ) أو (فلسفة التاريخ) في العصر الحديث صارت مصطلحاً يشير إلى جانبين مختلفين من جوانب دراسة التاريخ:
- الجانب الأول: يتعلّق بدراسة مناهج البحث في هذا العلم من وجهة النظر الفلسفية.
- وأما الجانب الثاني: من جوانب دراسة التاريخ في الفلسفة الحديثة -: فهو دور الفلسفة بوجه عام وهو مهمتها الرئيسة الأخرى.

الفروق بين المؤرخ وفيلسوف التاريخ:

هناك فروق كثيرة بين المؤرخ ومفسّر التاريخ، أو فيلسوف التاريخ، وهذه الفروق -في جزء كبير منها- تنطبق على الفروق بين الباحثين في أي علم، وبين منظري هذا العلم وفلاسفته، وقد نستطيع -بإيجاز- أن نقول كما قال ابن خلدون: إن عمل المؤرخ هو (ظاهر) التاريخ، وعمل مفسر التاريخ هو (باطنه).

علمية فلسفة التاريخ بين المؤيدين والمعارضين

إننا في فلسفة التاريخ أمام موضوعين مرتبطين ومتكاملين، أولهما تاريخ، وثانيهما تفسيره.
- فالتاريخ يتعلّق بالوقائع الجزئية التاريخية، وبالحوادث المنظورة التي تقوم الأدلة القوية على أنها وقعت فعلاً على مسرح الحياة.
- أما العملية التفسيرية للتاريخ، فهي أقرب إلى العلمية من العملية التاريخية نفسها؛ ذلك لأن العملية التفسيرية عملية تعميمية تسعى إلى صياغة القوانين، والوصول إلى مرحلة (التقنين).
ولا مشاحة في أن بعض القوانين، يمكن أن يثبت قصورها، أو عجزها، لكن العلوم الطبيعية أيضاً قد تعرضت في مسيرتها التاريخية لكثير من القصور، والعجز، بل لكثير من الخطأ.. فهل يعني ذلك أن نلغي (العلمية) كلها لمجرد أن القصور يعتورها، أو أنها قد تصيب، وقد تخطئ؟!!

إن اكتشاف أي قانون، يعتمد على ركنين ماديين:

◆ المكتشف وهو الشرائح الموجودة في الطبيعة أو التاريخ والتي تشكل قانوناً.

◆ والمكتشف وهو الإنسان.

ولا علاقة للركن الأول بأي لون من القصور، وهو في الطبيعة مثله في التاريخ، مثله في الفكر، وكل ما هنالك أن القرون البشرية الأخيرة قد شهدت تركيزاً على العلوم الطبيعية والماديات، فارتقت قوانينها ووصلت إلى ما لم تصل إليه الدراسات الإنسانية بعامة. وأما الركن الثاني الذي هو الإنسان، فمن طبيعته التعرض الدائم للخطأ والصواب، ولم يضع الله في طبيعته أن يصل إلى القوانين المطلقة؛ لأنه لا يُؤمن عليها، وقد يدمر كل شيء إذا عرف كل شيء!! والإنسان هو الإنسان في فهم الطبيعة أو التاريخ أو في فهم نفسه، فإذا تحققت له شروط صالحة أو ظروف كافية للنجاح في أي منهما، فإنه سينجح، أما إذا تخلفت الشروط أو الظروف فإنه سيخفق. فالقضية قضية ظروف وشروط متطورة، وليست قضية ذاتية! و«العلمية» موجودة، في الأساس، وإنما يختلف مدى الوصول إليها، باختلاف الظروف والشروط الموضوعية الملائمة.

والتاريخ يتأثر أيضاً بتطور المجتمعات، وتغير طرق المعيشة وتطور البنى النفسية للإنسان، بل وبمتأثرات التاريخ العكسية فيه، فلا يمكن التنبؤ بالمستقبل بشكل يقيني ولا شبه يقيني، وفي التاريخ احتمالات وصدف تشكل - ضمن حدود المعرفة الإنسانية الحالية - نوعاً من اللامنطق ضمن منطق السير الكوني له.

اعتراضات في وجه العلميّة التّاريخيّة:

لقد حاول أحد المؤرخين العرب المعاصرين أن ينفي علميّة التّاريخ وبالتالي علميّة تفسيره، على أساس وضعه لمقولة مشابهة لمقولة الوصول إلى القانون في العلوم الطبيعية، لكنها مختلفة عنها بالقدر الذي ينفي علميتها.

ففي العلوم الطبيعية تكون المقولة هكذا:

◆ المادة. (الثابتة)

◆ العليّة. (كعلاقة)

◆ الكلية أو القانون. (كحتمية مجرّدة عن الزمان والمكان)

أما في التّاريخ، ففي رأيه أن سلسلة المقولات هكذا:

◆ الإنسان. (الدائم التحول بيولوجيا ونفسياً ومعرفياً واجتماعياً)

◆ العليّة. (كعلاقة)

◆ الصيرورة. (كحصيلة للتحويلات)

ويبرر الباحث رأيه بمزيد من التفصيل حول هاتين المعادلتين فيقول: إن الحد الوحيد المشترك بين السلسلتين هو وجود العلاقة السببية ولا يماري فيها أحد من الباحثين، ولكن التشابه ينتهي عندها بعد ذلك، فالإنسان ليس مادة فحسب، ولكنه مادة حيّة وواعية، وهو يتغير دون انقطاع، لا من عصر لآخر، ولكن من مكان لآخر، ومن تكوين عرقي إلى تكوين آخر، ويتغير باستمرار بيولوجيا كما يتغير نفسيًا، ويتغير في المعرفة ونتائجها وفي البنى الاجتماعية والتكوينات الاقتصادية، وتختلف آثار الزمان فيه، وتأثيرات المكان في رواسب وردود فعل وارتكاسات ومواصفات لا تنتهي حدّة وعددًا وتوترًا واستمرارًا.

فلسفة التاريخ والسنن الحضارية في العصور القديمة [النشأة والمعالم]

تفسير التاريخ: نشأته وتطوره

توطئة: إن مصطلح فلسفة التاريخ أو تفسيره مصطلح حديث النشأة، شأنه شأن كثير من المصطلحات التي تكون مضامينها موجودة، ومبعثرة في الفكر الإنساني، ومختلطة بغيرها من المفاهيم دون أن تحمل اسمًا خاصًا مستقلًا.

ذلك لأن هذه المصطلحات، ومنها مصطلح تفسير التاريخ، أو (فلسفة التاريخ)، تكون في مرحلة الاندماج مع غيرها ضمن مصطلح آخر أقوى وأكثر نضجًا واستقلالًا.

وفي هذه المرحلة يكون المصطلح مجرد جزء من أجزاء مصطلح آخر، وتكون خصائصه الذاتية أقل من أن تكون قادرة على الوقوف وحدها في عالم المفاهيم.

ولا يعني عدم استقلال أي مصطلح أو مفهوم من هذه المصطلحات أو المفاهيم -التي تتطور إلى علوم وشرائح مستقلة من المعرفة- أنها لم تكن موجودة في الوعي الإنساني، فكل ما هنالك أنها لم تكن قادرة على الوقوف مستقلة، ذات شخصية مستقلة، وذات أهلية في مواجهة الحياة، فإن أركانها -كعلم- لم تكن قد اكتملت بعد.

وإذا كنّا نتصور أن اهتمامات الإنسان بما حوله، ومحاولاته أن يفهمه ويفهم ما وراءه، منذ نشأ على هذه الأرض بعد أن هبط من الجنة، إنما هي اهتمامات أصيلة وقديمة، فإن لنا أن نتوقع أن يكون الإنسان قد وضع أسئلة كثيرة حول كثير من الظواهر الكونية والاجتماعية.

إن حركة الكون المكرورة أمامه من ليل ونهار وشمس وقمر ونجوم وعواصف وزلازل، دفعته بغير شك إلى التساؤل:

◆ من يصنع هذا؟

◆ كيف يصنع؟

◆ ولماذا يصنع؟

وفي الواقع البشري الاجتماعي والفردي يجد الإنسان نفسه محاصرًا بمجموعة من الظواهر التي تشبه الظواهر الكونية، في ضرورتها وتكرارها.

◆ فحاجة الإنسان إلى الطعام أساسية ومتجددة ولا تنتهي.

◆ وحاجة الإنسان إلى الشراب ...

◆ وحاجة الإنسان إلى النوم ...

◆ وحاجة الإنسان إلى اللباس والمسكن.

وكل هذه حاجات فرديّة، تجعل الإنسان يتساءل: هل هو مجموع هذه الحاجات؟ وهل حياته لا تخرج عن نطاق إشباع هذه الجوانب؟

إن تفسير التاريخ الذي هو محاولة فهم ما وراء الحركة الإنسانية من سببيّة وغائيّة، تحرك في الوعي البشري دائمًا، وظلّ ينمو حتى انتهت مراحل ولادته، فظهر علمًا مستقلًا يفرض نفسه على علم التاريخ، كما يفرض الابن نفسه على أبيه.

إن تفسير التاريخ هو ثمرة التاريخ في تفاعله مع حركة الكون والوعي الإنساني، وإن استمرار الإنسان في المعرفة لذاتها أمر لم يكن ممكنًا فإن الإنسان حريص على أن يعرف الأسباب والعلل والغايات، ليستفيد من حركة الماضي شيئًا لحركة المستقبل.

نشأة تفسير التاريخ في العصور القديمة

المراحل الأولى:



لقد أحسَّ الإنسان بدبيب الحاجة إلى الروح يمشي في عقله وفطرته تمامًا كإحساسه بدبيب الحاجة إلى الجوانب العضوية والاجتماعية، ولا شك أنه في أوقات معيّنة يكون إحساسه بالحاجة إلى الرعاية الدينية أكبر وأعمق، وربما كانت الأمراض المُعدية أو العواصف المدقّرة، أو الأمواج المتلاطمة، أو الغابات الكثيفة المخيفة،

أو الحيوانات غير الأليفة. أو غيرها من الظواهر التي يحسُّ الإنسان بضعفه أمامها - من أسباب تقوية شعوره بالحاجة إلى الدّين ولرعاية خالق قدير .

والراجح عندنا أن ظهور اللغة كان مصاحبًا لظهور الإنسان نفسه، والتطور إنما وقع في تطور الأشياء التي تحتاج اللغة إلى نحت تعبيرات عنها، وأيضًا في تشعب اللغة إلى عدد من اللغات. أما اللغة نفسها، الكافية في توفير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في مراحل الإنسان الأولى، فقد كانت شيئًا نشأ مع الإنسان نفسه.

والقرآن يقول: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) [البقرة: 31] دلالة على أن اللغة من الأسلحة الأصليّة التي زوّد الله الإنسان بها.

وعن طريق هذه اللغة زوّد الإنسان بطاقات عقلية أعمق وأكثر أبعادًا، فالكلمات في ذاتها - كما تعرف - مصدر خطر وقوة، وربما كان زاد إنسان العصر الحجري القديم من الكلمات مجرد أسماء لا غير، وكان يقف عند حد استعمالها فيما تدل عليه، ولكن إنسان العصر الحجري الحديث كان يفكر في تلك الكلمات، كان يفكر في عدد من الأشياء تفكيرًا يخالطه قدر كبير من الارتباك اللفظي، فيؤدي به ذلك إلى استنتاجات عجيبة، واستطاع بفضل اللغة أن ينسج شبكة تضم أبناء جنسه بعضهم إلى بعض.

وإذا كان الإنسان قد أدرك منذ البداية أن الله (هو الخالق القادر المبدع العظيم، وإذا كانت رسالات السماء قد حافظت في فكره الداخلي وفي فطرته على الشعور الدائم بالله وبوحدانيته وقدرته، فقد ظلّت على النقيض من ذلك محاولات طمس هذه الفطرة، بحيث بدا التّاريخ مذبذبًا بين فترات من التوحيد وفترات من العجز عن الوصول إلى التّصوّر الصحيح لله خالق الكون.

المعالم الأساسية لتفسير التاريخ في الحضارة المصرية والصينية

وكما فكر الإنسان في الكون المحيط به: كيف خلق؟ ولماذا خلق؟ وكيف تطلع الشمس ومن أين تطلع؟ - فإنه فكّر في الله وفي الخلود، وفي تفسير حياته على هذه الأرض، ومن ثمّ فكّر في قصة وجود المجموع البشري كله، وما معنى وجوده؟ لقد بحث المصريون القدماء عن هذه القضايا، ولقد سجلوا وقائع كثيرة من تاريخهم على جدران المعابد، وكان اهتمامهم بالتاريخ البشري وربطه بالناموس الكوني اهتماماً أصيلاً، فهم أصحاب حضارة زراعية نبتت على ضفاف النيل.

لما سئل (طاليس) مرة عن أصعب الأشياء قال: هو "أن تعرف نفسك"، ولما سئل عن أسهلها، قال: هو "أن تسدي النصح لغيرك"، وسئل كيف يستطيع الناس أن يعيشوا عيشة الفضيلة والعدالة أجاب "ألا نفعل ما نلوم غيرنا على فعله" وهذه (النظرات) كلها نقلها (طاليس) عن أساتذته في مصر الفرعونية، وبالتأكيد كان سائر فكره الذي نشره في أثينا متأثراً بالفترة التي أمضاها متتلماً في مصر.

يقول حكيم مصري: "أقم العدل، لتوطد مكانك فوق الأرض، وواس الحزين، ولا تعذب الأرملة".

مع ذلك فإن مصر الفرعونية -نتيجة ميلها إلى الخضوع المطلق لحكامها الفراعنة- جعلت المصريين يعتقدون بفروق شاسعة بينهم وبين سواد الشعب فيثأله بعضهم، ويقول صراحة: (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) [النازعات: 24] ويقول: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) [القصص: 38].

أقول: إن مصر الفرعونية التي استخفت فراعنتها يشعبها وأطاعهم الشعب طاعة عمياء، ما كان لها أن تستطيع الوصول إلى الدين الحق والمعبود الحق في ظل هذه الوثنية البشرية. وبالتالي فلم يكن لها وعي صحيح بالتاريخ ولا بصانع التاريخ، ولم تستطع الوصول إلى تفرقة حاسمة بين ما هو إلهي وما هو بشري!! وفي تاريخ الصين القديم قذّر كبير من الكتابات والتأملات يفوق كثيراً ما يعتقده الكثيرون، وقد تضمنت التأملات الصينية مواقف واتجاهات معينة من التاريخ ربما كانت دفاعاً عن تفسير معيّن للتاريخ، وقد شاع بينهم الاعتراف (بثنائية) الوجود، معبّرين عن هذه الثنائية بمصطلحين شائعين هما: (بين) و(يانج) ويمثل (بين) حالة السلب والتلقي والاستيعاب، أما (يانج) فيمثل حالة النشاط والحركة، ويكمل كل منهما الآخر، فتاريخ الفرد والجماعة هو التكامل بين (بين) و(يانج) اللذين يجمعهما (تاو) بوصفه الكل المنظم المرتب المتزن.

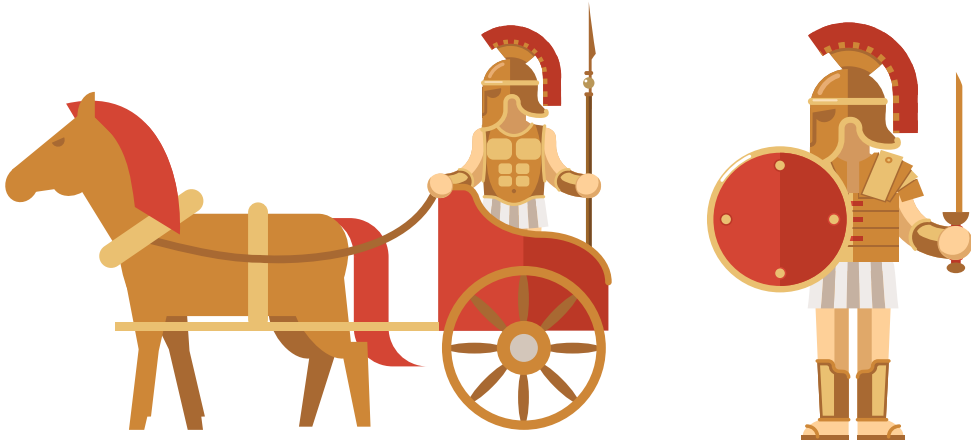


تفسير التاريخ عند الرومان

كان أكثر الرومان يؤمنون بالفلسفة اليونانية وبالفلسفة الأبيقورية التي ابتدعها أبيقور، والفلسفة الرواقية التي وضع قواعدها زينون.

والأبيقورية فلسفة تقوم على الحسيّة المائلة إلى الشهوات، وتجعل الدنيا هي الوجود الأوحد، ولا تؤمن بما بعد الموت، وترى أن الموت هو النهاية التي لا كينونة بعدها، وأن على المرء بالتالي أن يأخذ من الحياة كل ما يستطيع، وأنه حتى لو كان هناك إله فإنه ليس مشغولاً بالناس ولا بتاريخهم.

وكرر فعل للمذهب الحسيّ الأبيقوري، ظهرت تعاليم الرواقية التي جمعت بين العقلانية والعملية المعاشية. وقد صوّر الرواقيون العالم في صورة عقل عام وشامل، متصل في المجموع كله، وهي فكرة تعتبر أصلاً لأفكار وحدة الوجود التي شاعت في العالم الوثني وأدخلها بعض المتصوفة إلى ميدان الفكر الإسلامي عن سوء قصد، أو عن ضلال في التصور الاعتقادي.



والفلسفة الأبيقورية تكاد -بإجماع المؤرخين- أن تعدّ من أهم العوامل التي أدت إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية من حيث الترف والانغماس في الشهوات والمفاسد الأخلاقية. وقد صوّر هذا التحلل أدق تصوير المؤرخ (جيبون) في كتابه عن اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها.

لقد انحدرت المفاهيم والأفكار ولاسيما في القرون الثلاثة الأخيرة من عصر الدولة الرومانية إلى الهاوية، ولقد وجدت التبريرات العقلية والمنطقية لكل صور الانحطاط التي هوت بالمجتمعات الرومانية. ولقد أصيبت روح الإنسان في عهد تلك الإمبراطورية اللاتينية بالاضطراب والإحباط، فرانت القسوة والإكراه، والتظاهر والكبرياء، والقليل من الشرف.. والقليل من الصفاء

تفسير التاريخ عند الفرس

عرف الفرس قبل الإسلام بالوثنيّة التي تمثّلت في عدد من التصورات الساذجة؛ كعبادة الكواكب والنار والعظماء وغيرها من المعبودات التي كانت جزيرة العرب قبل الإسلام تعجّ بها. وتعتبر الزرادشتية، وهي المذهب المنسوب إلى زرادشت أو زواستر مؤسس المذهب (عاش حوالي سنة 1000 ق.م) من أبرز المذاهب التي نشأت في فارس وانتشرت فيها، على الرغم من أن أكثرية الزرادشتيين قد هاجروا إلى الهند منذ حوالي ألف عام.



وأهل الرأي يعتبرون أسفار (الجاثا) من أقدم ما عرف من المؤلفات الزرادشتية المعبرة عن تعاليمها، وهي تعاليم احتفظ أتباعه بأهم ما فيها من مبادئ طوال التاريخ الزرادشتي كله. والجدير بالذكر أنه لم يحدث قط في عمر الزرادشتية أنها صورت معنى التاريخ بأنه يقوم بوجه خاص في المجتمع بوصفه مجتمعًا، فالفرد وحده هو الذي عليه عبور (الشتعات)، ويعنون به الجسر الذي ينتقلون به إلى الحياة النهائية، ومع ذلك فإن الزرادشتية لم تهمل إبراز العلاقات البشرية، بل أكدتها على الدوام، وإلى التعاون الاجتماعي أرجعت انتصار الخير في العالم. ولكن كل هذه الومضات الزرادشتية كانت محاطة بسياج من التصورات الساذجة عن الله والكون، وقد ازدادت هذه التصورات سوءاً في العهود التي تلت صاحب المذهب.

وهكذا يبدو لنا الفكر البشري القديم في رحلته بحثاً عن الوصول إلى بعض المفاهيم حول تفسير التاريخ... يبدو لنا هذا الفكر وكأنه يمشي في بحر لَجِّي تتلاطمه الأمواج، فلا يصل إلى مبدأ إلا لينقضه بعد قليل، وليعود القهقري ولا يضع يده على مصباح إلا ليسير بنفسه إلى إطفائه، ذلك لأنه مشي في طريق بلا معالم ثابتة بلا دين صحيح.

التفسير الديني في التاريخ

[التفسير اليهودي والتفسير النصراني والمعالم المشتركة]

التفسير التاريخ: في اليهودية والنصرانية:

المعالم المشتركة للتفسير الديني:

إن أهمية الدين في التاريخ أهمية لا تنكر، فكل الدلائل تؤكد أن (مصباح العقل) وحده لا يكفي لحماية المسيرة الإنسانية التي تحيط بها الأهواء والأضاليل والانحرافات من كل جانب، فإن الإنسانية - بالتالي - لا تستطيع أن تستغني عن (هداية الدين) الصحيح، وأكبر ما يعطيه الدين الصحيح للحركة البشرية معالم ثلاثة

◆ منهج صحيح لفهم ما وراء الطبيعة وأسلوب صحيح في عبادة الله.

◆ منهج صحيح للحياة الإنسانية فردًا كان أو مجتمعًا إنسانيًا.

◆ الأمل، بجانبه: أمل متجدد في هذه الحياة، مهما كثرت فيها المحن والظلمات، وأمل فيما عند الله

بعد هذه الحياة الدنيا التي تعتبر عند الأديان الصحيحة مجرد قنطرة للأبدية.

وأنا لا أتصور -من ناحية الأصول المنزلة الصحيحة- أن هناك دينًا سماويًا فصل بين الدنيا والآخرة، أو فصل بين الفردي والاجتماعي أو بين ماضي التاريخ البشري -فلسفة التاريخ واستخلاص السنن الكونية والاجتماعية وحاضره... بل إن ما نراه من فصل في بعض الأديان المعاصرة، إنما هو فصام مصطنع مستحدث، وإلا فإن الأديان الثلاثة الموجودة الآن في عالمنا (اليهودية أو النصرانية أو الإسلام) إنما نزلت لتقعد للعالم ما يربطها بالآخرة، كما أن أي دين من الأديان كان لبنة تتصل بما قبلها وتشد من أزرها، لأن مصدر الوحي واحد، وهذا المصدر لم يرسل المناهج الإصلاحية لينقض بعضها بعضًا، بل ليؤدي كل منها دوره في الظروف التاريخية الملائمة، ولكي يدفع نهر التاريخ البشري خطوات إلى الأمام حتى تصل سفينته إلى شاطئ العقل والإيمان معًا.

اليهودية وتفسير التاريخ:

لقد بقي لنا سجل يهودي يعرف بالعهد القديم (التوراة)، وهذا السجل من وجهة نظر المؤرخ، قد ضُمَّ بعضه إلى بعض في أوقات متلاحقة، وعلى أيدي أفراد مختلفين، وبعض هذا السجل ملاحم، وبعضه قواعد كهنوتية، وبعضه حكم ودلالات خلقية ووطنية، وبعضه قصائد شعرية وغير ذلك، وقد ظلت هذه المجموعة من الأدب القومي اليهودي المسماة بالتوراة، تعتبر عند اليهودي (كلمة الله)، مع أنها لا يمكن أن تخضع لأية دراسة علمية نقدية، ولا أية دراسة لا تعتمد على التأويل والتفسير الرمزي.

وخلال القرن الثامن عشر بذلت محاولات في دراسة هذه النصوص، بالمنهج نفسه الذي درست به النصوص الأدبية والتاريخية لهومل وفرجيل، وثيوسيديد، وهيرودوت. ولم تستطع هذه الدراسة النقدية أن تصل إلى اتفاق تام على الرأي التوراتي في مشكلات المصير البشري، بل إن الدارسين قد حادوا في معرفة عصور الأسفار المكتوبة ومؤلفيها، ولا يزالون حتى اليوم مختلفين حول مَنْ كتب هذه الرسالة أو تلك، فردًا كان أو جماعة.

وقد ناقش أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت 456هـ) التوراة مناقشة نقدية تاريخية من عدة جوانب يهمنها منها هنا جانبان هما:

◆ الأول: كشفه للتناقض في نسخ التوراة (كما هو الحال بين توراة السامرية وتوراة سائر اليهود).
◆ والجانب الثاني: كشفه الأكاذيب في نصوص التوراة المعتمدة لدى اليهود، والتناقض بينها، ومن أبرز الأكاذيب التي كشفها ابن حزم في التوراة ما ورد فيها عن النَّهر الذي يخرج من الجنة متفرعًا إلى أربعة رؤوس هي النيل، وجيحان ودجلة والفرات. وكذبها على الله بأنه اعترف بأن آدم قد صار مثله في القوة، وزعمها أن لله أولادًا، وقولها في لوط وبناته بما لا يليق، وزعمها أن في إسحاق شنعًا مخزية، ونسبتها الزنا لأنبياء بني إسرائيل... وزعمها أن الله حض بني إسرائيل على سرقة أموال المصريين حين خروجهم من مصر، وأن هارون هو الذي صنع لهم العجل ليعبدوه.

ومع كل هذه المآخذ على التوراة، فإننا نستطيع أن نقول: إن نظرة اليهود إلى التاريخ تقوم أساسًا وفي أوسع شمول على عقيدة (الله)، فالطريق إلى فهم التاريخ هو الاعتماد على السيطرة الإلهية، ومع أنه جاء عليهم أوان ربما سار فيه اعتقاد يهودي بأن للشعوب المختلفة أربابًا متفرقين، وأن لليهود (إلههم الخاص) العظيم. لأنهم شعب الله المختار، إلا أننا نرى أن الرأي السائد لديهم أن هناك إلهًا واحدًا فقط.

ومع أن الإصحاح الأول من سفرهم الأول (سفر التكوين) تعتبر أسطورية (ميثولوجية)، فإن هناك فكرة جوهرية هي أن بداية التاريخ البشري إنما ترجع إلى الله، فهو الذي خلق الأرض بكل ما لديها من خصائص تجعل التاريخ ممكنًا على ظهرها، وهو الذي خلق الكائنات البشرية في صورة (سيكوفزيائية) أي أرواح لها أبدان، وهو الذي أدخلهم في رفر من السعادة والحبور ((جَنَّتْ عدن)). ولكن التاريخ يحتوي على الشر، كما أن قصّة ((سقوط)) آدم وحوّاء، وهما أول الكائنات البشريّة، تقدم لنا تبيانًا لأصل ذلك الشر.

ولا يمكن القول بأن فكرة اليهود عن التاريخ تقوم على نزعة فردية، بل هي فكرة تدور حول نزعة شعوبية عنصرية (شعب الله المختار) ثم حول البشرية عامة، والملوك نواب الله في الأرض، عليهم العمل على زيادة رفاهية شعب الله المختار. الذي سجّلت الأسفار التاريخية ما فعله الله بهم وما أتاهم من أجله، وهذه الفكرة العنصرية ليست مجرد كبرياء أو فخر عنصري، وإنما هي فكرة دينية: (فأجعلك آية عظيمة أباركك وأعظم اسمك، وتبارك فيك جميع قبائل الأرض)، وقد كان لهذه النزعة العنصرية أثرها الكبير في التاريخ اليهودي ونتائجها المدمّرة على التاريخ الإنساني كله.

النصرانية وتفسير التاريخ:

إذا كانت اليهودية قد تخبّطت في أصولها الفكرية على النحو الذي رأيناه في التوراة، فإن النصرانية قد خضعت للمنهج نفسه تقريباً عبر مسيرة كتبها المقدّسة في التاريخ - ومن المؤسف أنه ليس لدينا (إنجيل المسيح) نفسه الذي تنزل عليه، وكل ما لدينا عدة مذكرات شخصية كتبها بعض تلامذته الذين عاصروه، والذين لم يعاصروه.

◆ والنصارى لا يدّعون أن الأناجيل منزلة من عند الله على المسيح، ولا أن المسيح أتهم بها، بل كلهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفين في أزمان مختلفة:

◆ أولها: تاريخ ألفه (متى اللاواني) بالعبرانية بعد تسع سنين من رفع المسيح، في نحو ثمان وعشرين ورقة بخط متوسط.

◆ والثاني: تاريخ ألفه (مرقص الهاروني) بعد اثنين وعشرين عاماً من رفع المسيح، وكتبه باليونانية في أنطاكية.

◆ والثالث: تاريخ ألفه (لوقا الطبيب) تلميذ شمعون باطرة، كتبه باليونانية بعد تأليف مرقص المذكور في حجم إنجيل متى.

◆ والرابع: تاريخ ألفه باليونانية (يوحنا ابن سيزاي) بعد رفع المسيح بضع وستين سنة في أربع وعشرين ورقة.

ويعترف أكثر علماء النصارى بأن هذه الأناجيل لا تصمد أمام منهج النقد العلمي الحديث، ويقول (ويدجري) صراحةً: (إنه قياساً على مناهج ما يمكن أن يسمّى باسم التاريخ العلمي، لا يمكن إثبات أن الأحداث التي تعدّ أساسية في المسيحية قد حدثت فعلاً)، أما موريس بوكاي - الجراح الفرنسي العالمي - فيقول في معرض حديثه عن التوثيق التاريخي للتوراة والأناجيل (العهد القديم والجديد):

"لم يكن يجري الحديث (منذ مجمع نيقية) حتى مجمع الفاتيكان الثاني (1962-1965م) عن أصالة نصوص التوراة والأناجيل، باستثناء الاختصاصيين النادرين، ومن ذلك أنه ما من أحد كان يتجرأ على أن يتشكك في كونها - أي الأناجيل - نتاج شهود مباشرين لرسالته - ألم تكن الأناجيل تدعى (مذكرات الحوارين)؟ ولكن لائحة من لوائح مجمع الفاتيكان الثاني في سنة 1965م لم تنح هذا النحو بصورة قطعية) غير أن هذا التصور قد هاجمته بعد سنوات قلائل من المجمع الأخير بحوث أخذت تظهر ابتداءً من سنة 1970م وهي من إنتاج (اللاهوتيين) مسيحيين، فقد قام هؤلاء بدراسة دقيقة للنصوص مستعملين كل العناصر التي تمنحها لهم المعرفة العصرية في مجال علم اللغة وعلم الآثار، والتاريخ ... إلخ.

كان القدّيس بولس من أعظم من أنشأوا المذهب المسيحي، وهو لم ير المسيح قط، ولا سمعه يبشّر الناس به، وكان اسم بولس في الأصل شاول، وكان في بادئ الأمر من أبرز وأنشط من سلطوا الاضطهاد على فئة الحواريين القليلة العدد، ثم اعتنق المسيحية فجأة، وغير اسمه فجعله بولس، وقد أوتي ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة، كما كان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية، فتراه على علم عظيم باليهودية، والمترائية، ديانة ذلك الزمان التي تعتنقها الإسكندرية، فنقل إلى المسيحية كثيرًا من أفكارهم، ومصطلح تعبيرهم، ولم يأت إلا القليل في توسيع أو تنمية فكرة يسوع الأصلية، وأعني بها فكرة ملكوت السموات، لكنه علّم النام أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب، ولا زعيم اليهود فقط، بل إن موته كان تضحية مثل سمات الضحايا القديمة المقرّبة إلى الآلهة في أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشرية».

وفي الرأي اللاهوتي تسيطر على مجرى التّاريخ قدرة ربّانية عاطفة أو ساخطة، فكان لابد من خشيتها أو التضرّع إليها بلا انقطاع، وكان أقوى الملوك يرتجفون أمامها، ومن ذلك أن كان لويس الحادي عشر ينفق جل ماله محاولاً أن ينال حماية العذراء وأبرار الفردوس، قانعاً - على رواية مؤرخ له - بأنهم يتدخلون في أعمال الإنسان دائماً قادرين وحدهم على ضمان الانتصارات الحرّية أو الدبلوماسية، وإلى وقت قريب نسبياً كان على هذا الاعتقاد الصباني فلاسفة فضلاء، وقد ساق هذا الاعتقاد لبتنّز إلى أفكار كثيرة التفاؤل، فكان يقول: إن العالم بالغ الصلاح بحكم الضرورة؛ وذلك لأنه لاحقاً لحكمة الرب وكرمه.

إن الخطأ الكبير في التفسير النصراني للتاريخ، أن أسسه قامت على مبادئ خيالية يدحضها المنهج العلمي، ففكرة الثالوث وفكرة التجسد التي أخرجت النصرانية عن كونها ديناً تأليهيّاً، وفكرة الصلب بقصد التكفير عن خطيئة لا علاقة للمسيح بها، وما ينجم عنها من أفكار انحلالية توحى بالانغماس في الدنيا، والقول بأصالة الخطيئة في كيان الإنسان. كل هذه الأفكار قد لوّنت التفسير النصراني للتاريخ، وجعلته خليطاً من هنا وهناك لا تربطه رابطة عقلية ولا منطقيّة، شأنه شأن العقيدة النصرانية التي بنى عليها، ووسط هذه الأمشاج المتنافرة ضاعت من النصرانية الجديدة - الملقبة بالمسيحية - الصياغة المنطقية للتفسير النصراني للتاريخ، فذابت الحدود - في الفكر والتاريخ - بين ما هو إلهي وما هو بشري، وأصبح التفسير المسيحي للتاريخ جامعاً لعناصر موعلة في اللاعقل.

تفسير التاريخ في الحضارة الإسلامية

[الموسوعات والتنظير المنهجي]

أصول تفسير التاريخ في حضارتنا:

قصّ القرآن كثيرًا من أخبار الأمم الماضية؛ لذلك كانت المؤلفات الأولى يتوسع فيها بذكر أخبار الأرض من هبوط آدم، وقصص الأنبياء وأحوال القيامة ومقدماتها وسيرة الرسول الذي حمل رسالة الإسلام بقصد الفائدة. وأغلب هذه المؤلفات العامة المناهج تجدها بعناوين: (أخبار) و(سير) و(مغازي) و(تاريخ) و(فتوح) ومعظمها مرتب على نظام الحواريات والموضوعات، ولكن ظهرت فيما بعد رغبة عند المؤرخين المسلمين في تقصير هذه المؤلفات العريضة والتصرّف فيها بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان. كذلك ربط المسلمون التاريخ بكل العلوم، مثل الأدب، والسياسة، والاجتماع، والفقه، والجغرافيا، والرحلات، فكان بحق علم العلوم، ويتبيّن من أسماء الكتب التالية صلة التاريخ الواسعة بالعلوم التي قد تكون دائمًا من صميم التاريخ مثل:

"غرائب، وتحفة، وعقود، ودرر، ونزهة، وروضة، وحديقة، وحسن وحقائق وخريدة وخطط، وقد كانت هذه الصلة العامة سببًا في أن صار للتاريخ أعداء بالغوا في الزرابة عليه، وادّعوا أنه ليس بعلم محدد المنهج، وأن غاية فائدته القصص والأخبار ونهاية معرفته الأحاديث والأسمار»

تفسير التاريخ في تراثنا الإسلامي:

أ. مرحلة الأصول الموثقة:

عندما استقرت قواعد الحضارة الإسلامية الناشئة بعد نزول القرآن الكريم (الإطار الحضاري والتشريع والعقيدة)، وبعد التجربة العملية التي قدّمها الرسول ﷺ عبر ثلاثة وعشرين عامًا (السنة)، وشملت سائر أحوال الحياة الفردية والاجتماعية والإنسانية.

وعندما تغيّرت مسيرة الحضارة البشرية بظهور طريق جديد للحضارة، ثبتت معالمه ووضحت خصائصه، ونجح المسلمون في أن يقدموا اتجاهًا جديدًا في التاريخ من خلال هذا الطريق الجديد.

وعندما استقرّ هذا المنحى الذي غربل الموروثات الحضارية السابقة، ونفى منها ما نفي، وأثبت ما أثبت، وأفرز - من خلال هذه الغريلة - حضارة إسلامية أصيلة، تعبّر عن اتجاه إنساني جديد في التاريخ - بدأ المسلمون يهتمّون بالتاريخ - كعلم - وكان طبيعيًا أن يتجه اهتمامهم للتجربة الفدّة التي عاشوها، وهي تجربة (السيرة النبوية) التي لا تمثّل - بالنسبة لهم - مجرد (تاريخ) أو (عصر فتوحات) بل تمثّل - بالنسبة لهم - (المرحلة) التي صنعوا التغيير التاريخي من خلالها، وتمثّل لهم أيضًا قصتهم الرائعة مع الحضارة.

إن سيرة الرسول التي ليست سيرته (وحده)، وإنما هي سيرته معهم، ويهم، ومن خلالهم. فهم (المادة الخام) التي صاغها، وهم المعدن الذي صهره، وهم الطاقة التي فجّرها ودوّّل اتجاهها من السلب إلى الإيجاب، ومن الشرّ الضيق إلى الخير الواسع، ومن الآفاق الشخصية والقبلية والقومية إلى الآفاق الإنسانية والكونية والأخروية.

لقد سجّل المسلمون السيرة والمغازي أوثق تسجيل وأروعها، كما سجّلوا -كملحقات لها- أخبار الجاهلية وأيامها وأنسابها وأدبياتها وجوانبها الحضارية المختلفة، كما سجلوا - أيضًا - أخبار العرب قبل الإسلام وتاريخ الأنبياء السابقين، وتاريخ الفرس والروم وبعض الأمم الأخرى التي سمعوا بها، وقد كانت مصادرهم (المشاهدة) و(المعاينة) و(الكتب المقدسة) السابقة وما يرويه الإخباريون - بالتواتر - والمهتمون بالأديان. أما تاريخ (السيرة والمغازي) فقد كانوا صانعيه؛ وبالتالي فقد كتبوه بأعمالهم قبل أن يكتبوه بكلامهم. وقد كان المصدر هم أنفسهم ولم يحتاجوا إلى مصادر من خارجهم، وقد توارثوها - عبادةً ونموذجًا - قبل أن يتوارثوها تاريخًا.

وقد كان (السند) و(الناقل) - بين التعديل والتجريح - هما الركيزة التي اعتمدوا عليها في نقل السيرة والمغازي؛ لكونهما عبادة وتاريخًا في آن واحد.

لقد اشتهر في مدرسة السيرة والمغازي عروة بن الزبير بن العوّام (ولد سنة 23هـ)، وأبان بن عثمان بن عفّان (ولد سنة 20هـ)، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، والوليد بن مسلم أبو العبّاس الأموي (ت 195هـ)، وسعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي (ت 123هـ)، وسهل بن أبي خيثمة المدني الأنصاري (ولد سنة 3هـ)، وشرحبيل بن سعد (ولد سنة 24هـ)، ووهب بن منبه (ت 114هـ).

ثم ظهر من بعد هؤلاء أجيال المؤرخين الذين حملوا راية تععيد علم التاريخ واستقلاله، ثم المحدثون الذين حملوا أعظم أمانة في التاريخ، وهي نقل كلام الرسول ﷺ صحيحًا، عن طريق التفرغ لجمعه، وتمحيص صحيحه من موضوعه.

لقد قدّم لنا هؤلاء السيرة ممزوجة بالتاريخ، وقدّموا لنا كلام الرسول ﷺ (موثقا) أعظم توثيق، ولعلّ توثيقهم - بل هو كذلك - لم يتوافر لكتب يزعم أصحابها أنها مقدّسة، لقد كانوا يختلفون على (الكلمة) ويروونها بالروايات المختلفة التي وردت بها، ولم يسمحوا لأنفسهم بأدنى تغيير أو استعمال (الأسلوب الخاص) أو الإيراد بالمعنى، كما كتبت كتب (مقدسة) كثيرة بأقلام تلامذة صاغوها بأسلوبهم الخاص، وبما بقي في أذهانهم من معلومات دون استعمال للسند أو للجرح والتعديل أو ملاحقة للألفاظ نفسها حتى تصل الحقيقة كما هي دون ظلال شخصية أو تعبيرات خارجية - بالتأكيد لن تستطيع التعبير عن الحقيقة كما وردت ألفاظها الأصلية القانونية.

ب. مرحلة التدوين الموسوعي وبذور تفسير التاريخ:

أولاً: تفسير التاريخ في المشرق الإسلامي:

ابن جرير الطبري:

يعد ابن جرير الطبري (ت 360هـ) البداية البارزة لمرحلة التدوين الموسوعي في المشرق، وقد قَدِّم للمكتبة التَّاريخيَّة كتابه العظيم (تاريخ الرسل والملوك) (10 مجلِّدات) الذي ينظر إليه على أنه إمام في هذا الباب. وقد غلب على الكتاب المنهج السردى التقليدي، دون الوقوف بدرجة مقبولة عند الدلالات التَّاريخيَّة. فالتَّاريخ في رأيه كلام في مسائل مادِّيَّة حدثت، وأخبار ماضية وقعت، وهي وإن كانت تحتمل الصدق والكذب، إلا أنها تستخرج بالرواية والأخبار لا بالعقول والأفكار.

المسعودي:

وقد مثَّل المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين الهذلي) المتوفَّى سنة (345هـ/957م) مع قربه من عصر الطبري - ومعاصرتَه له - مرحلة أكثر تطورا في الإلماع إلى بعض مغازي التَّاريخ. وقد وصلت إلينا من مؤلفاته بعض الكتب أهمها: مروج الذهب، والتنبية والإشراف، وكتاب أخبار الزمان ومن أبادَه الحدثنان (بقي منه الجزء الأول وكان في ثلاثين مجلِّدًا) وكتب أخرى ضاعت ولم يبق منها إلا اسمها. ولم يكن المسعودي مؤرِّخًا فحسب، بل كان مؤرِّخًا وجغرافيًا معًا، فهو رحَّالة سائح يجمع مادته التَّاريخيَّة من رحلاته الواسعة، فقد زار الحجاز ومدين وفلسطين والسند والزنج والصين وإيران وجاب الساحل الشرقي للبحر الأحمر، كما كان يعنى بأثر المناخ والبيئة الجغرافية فيما يناقش من قضايا التَّاريخ. قفز المسعودي - القريب من عصر الطبري - قفزة كبيرة في مجال تفسير التَّاريخ فحرَّك (السكونية) الجامعة التي برزت في تاريخ الطبري، وقَدِّم نمطًا موسوعيًا متحرِّكًا يعتمد على الفكر والرؤية الشموليَّة والتعليل، وأخرج التَّاريخ من إطاره السياسي المحدود إلى الدائرة الأرحب التي تتسع لأُمور الفلك اتساعها للأبحاث الجغرافية، وتأتي فيها أخبار الكتب وأجناس البشر بجانب أخبار الرجال وحديث التقاليد والأقاصيص والطب، وهو يتحدَّث في السياسة وعللها وأُمور الحرب حديثه في أُمور الفكر والجدل الذهني والديني، دون أن ينسى دومًا ذكر الأحداث والملوك والأعمار والناس.

الجاحظ:

على أننا في الحقيقة نستطيع أن نجد في بعض الكتابات غير الموسومة بالطابع التَّاريخي المباشر، بعض نماذج لتفسير التَّاريخ، وتقديم إطار الحركة الفكرية والاجتماعية، ولعل كتابات أبي عثمان بن بحر الجاحظ (المتوفى سنة 255هـ) خير نموذج لهذه الكتابات التي يلتمس فيها ومضات تفسير التَّاريخ بمعناه الشامل. ومن كتبه التي حملت بذورا تفسيرية للتاريخ كتاب الحيوان، وكتاب البخلاء وكتاب التاج في أخلاق الملوك، والقطع التي ظهرت من كتابه (تصحيح الأخبار) - فضلًا عن رسائله التَّاريخية الكثيرة مثل (رسالة في بيان مذاهب الشيعة) و(رسالة في بني أمية)

ورسالة في مناقب الترك، وفي أخلاق الملوك، وفي مدح التجارة وذم عمل السلطان، وغيرها - فالجادظ يعتبر بحق من المؤرخين الذين ركزوا على الجوانب الاجتماعية والحضارية، ولهذا فهو أدخل في تفسير التاريخ من كثير من المؤرخين التقليديين.

ابن الجوزي:

ويشير الحافظ أبو الفرج بن الجوزي (المتوفى سنة 597هـ) في مقدمة كتابه (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) إلى أن للسيرة والتاريخ فوائد كثيرة أهمها فائدتان: إحداهما: أنه إن ذكرت سيرة حازم، ووصفت عاقبة حاله، أفادت حسن التدبير، واستعمال الحزم، وإن ذكرت سيرة مفرط ووضعت عاقبته، أفادت الخوف من التفريط فيتأدب المتسلط، ويعتبر المتذكر، ويتضمن ذلك شحذ صوارم العقول، ويكون روضة للمتنزه في المنقول.

والثانية: "أن يطلع بذلك على عجائب الأمور، وتقلبات الزمان وتصاريف القدر وسماع الأخبار" ويشير العماد الأصفهاني في كتابه المعروف (الفتح القسي في الفتح القدسي) إلى فائدة التاريخ فيقول: "ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة، وتعذر الاعتبار بمسالمة الأيام وعقوبتها، وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها، وما وراء سهولتها من صعوبتها".

ثانياً، تفسير التاريخ في المغرب الإسلامي:

على أننا إذا ما انتقلنا إلى الجناح الغربي للعالم الإسلامي، وبخاصة في الأندلس والمغرب، فإننا سنجد نموًا مفاجئًا في مسيرة الدراسة التاريخية، فبعد أن كان التاريخ الأندلسي والمغربي عالة على المشاركة، وذلك خلال القرن الثالث الهجري، وهي المرحلة التي مثلها (ابن عبد الحكم - من أعلام القرن الثالث - وصاحب كتاب (فتوح مصر والمغرب والأندلس)، وعبد الملك بن حبيب (المتوفى سنة 238هـ) وصاحب كتاب (مبتدأ خلق الدنيا) - فإننا نجد الكتابة عن المغرب والأندلس تعود منذ القرن الرابع الهجري إلى أيدي أبناء المغرب والأندلس، بدءًا من أبي بكر محمد القرطبي المعروف بابن القوطية (توفى في العقود الأولى من القرن الرابع الهجري) وصاحب كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) ثم يأتي بعد (ابن القوطية) أول تاريخ ثقافي واجتماعي في تاريخ الكتابة التاريخية

المغربية والأندلسية، وهو كتاب (تاريخ قضاة قرطبة) للمؤرخ المعروف محمد بن حارث الخشني (المتوفى سنة 360هـ).

أما ابن حزم فيندرج تحت قائمة المفكرين لإسلاميين الذين يرون أن أحداث التاريخ تصنعها في البداية وفي إطار الحركة الكونية إرادة الله ومشيئته، ودور الإنسان في هذه الحركة عند ابن حزم دور محكوم بهذه لحركة الكونية، وبمجموعة الطبائع الفطرية التي خلقه الله عليها.

وقد تحدّث ابن حزم بإسهاب عن الأندلس في عصري الفتنة والطوائف، وقدّم لنا من خلال هذا العرض نموذجًا لتفسير التاريخ بتعرضه لمجتمع افتقد مقومات البقاء، وتفشّت فيه أمراض الحضارة. وبايجاز لقد كان ابن حزم من المفكرين المسلمين الأول الذين اتجهوا إلى الحديث عن بعض قضايا الفكر التاريخي من ناحية (البناء النظري) وكانت جهود هؤلاء المؤرخين هي التمهيد القوي الذي نجح من خلاله الفيلسوف العلامة (عبد الرحمن بن خلدون) في تقديم بناء فلسفي متكامل للفكر التاريخي.

ج - مرحلة التنظير المنهجي:

لقد قدّم محيي الدين محمد بن سليمان الكافيجي (788-879هـ) أقدم رسالة معروفة في نظريّة علم التاريخ، وذلك في كتابه (المختصر في علم التاريخ) الذي كتبه سنة 867هـ، ولئن كان ابن خلدون قد سبقه، فإن ابن خلدون كان يبحث في التاريخ، أما الكافيجي فكان يبحث في عمليّة كتابة التاريخ بصورة مباشرة. لقد حاول الكافيجي أن يقدّم معالجة لنظريّة التاريخ نفسها، وكتابه (المختصر) أصيل في طريقتة وجودة كتابته وعلميته ومنهجيته.

وفي كلام الكافيجي إشارة إلى الوظيفة الأساسية لعلم التاريخ، وهي رصد الأمور الحادثة الغربية التي لا تخلو من منفعة ونصح واعتبار... أما الحوادث العادية الرتيبة التي تحمل شيئًا إضافيًا أو الأشخاص الذين لا يقفون فوق خشبة مسرح الأحداث، بل يمثلون المادة الخام المكرورة المتشابهة. فهؤلاء - حوادث وأشخاصًا - لا يلتفت إليهم التاريخ إلا بطريقة إجمالية، ضمن رصده العام للشرائح الصانعة لنشاطات الحياة المختلفة.

أما شمس الدين السخاوي (المتوفى سنة 902هـ) صاحب (التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ) فيعرف التاريخ بقوله: (إن التاريخ فن يبحث فيه عن وقائع الزمان وحيثية التعيين والتوقيت، بل عمّا كان في العالم، وأما موضوعه: فالإنسان والزمان، ومسائله: أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان.

ويعتبر كتاب السخاوي تفصيلًا وافيًا لكتاب الكافيجي الذي كان موجزًا كل الإيجاز، كما أنه يعتبر - أيضًا - عرضًا جميلًا لعلم التاريخ الإسلامي وآماله ومعضلاته لمن يعرف كيف يقرأه. وهكذا مثل الكافيجي والسخاوي مرحلة التنظير للكتابة التاريخية على نحو منهجي من شأنه أن يدعم القاعدة التي أرساها العلامة عبد الرحمن بن خلدون ... لقد أصبح التاريخ على يد الكافيجي والسخاوي (علمًا)، كما أنه كان قد أصبح على يد ابن خلدون (قوانين) تستخلص منها فلسفة للتاريخ.

ابن خلدون

[عصر جديد في التفسير الحضاري للتاريخ]

ابن خلدون - عملاق فلسفة التاريخ:

ونقف عند علامة المغرب عبد الرحمن بن محمد الحضرمي - المعروف بابن خلدون، والمولود بتونس سنة 732هـ، والمتوفى بمصر سنة 808هـ، وقد اشتهر بابن خلدون نسبة إلى جده خالد بن عثمان وفقاً للطريقة المتبعة في المغرب في إضافة واو ونون زيادة في التعظيم.

قد بدأ ابن خلدون حياته العملية بوظيفة (كتابة العلامة) أي ديوان الرسائل بتونس، ثم تقلب بعد ذلك في البلاد متولياً المناصب المختلفة، وقاسى من المؤامرات السياسيّة، بل شارك فيها أحياناً.

وقد كان عصره - كعصر ابن حزم الأندلسي في القرن الخامس الهجري - عصر فتن ودسائس وانقسامات حتى إنه اضطر لأن يغمس يده في هذه الفتن - على أن هذا لا يجعلنا ننكر تأثير ابن خلدون ببعض المؤرّخين المسلمين السابقين الذين كادت تظهر على أيديهم أفكار متكاملة في تفسير التاريخ، وعلى رأس هؤلاء الذين تأثر بهم ابن خلدون، بل نقل عنهم واعتمد عليهم، وإن لم يذكر ذلك صراحة (ابن حزم الأندلسي).

إن الأمثلة التاريخيّة التي قدمها ابن خلدون، ليبين بها (ما يعرض للمؤرخين من الأغلاط والأوهام، وذكر شيء من أسباب ذلك) قد اقتبس بعضها من موسوعة "الفصل" لابن حزم. وليس هذا فحسب، بل إن ابن خلدون قد اقتبس نقد ابن حزم لهذه الأغلاط والأوهام.

والحق أن ابن خلدون هو المفتاح الكبير الواضح القسّمات والمعالم، والمتكامل الرؤية والمنهج في قضية تفسير التاريخ، بل إننا نستطيع أن نقول مطمئنين: إن الكتابة التاريخيّة ينتظمها عصران:

◆ عصر ما قبل ابن خلدون.

◆ وعصر ما بعد ابن خلدون.

ومهما وجدت نظرات متناثرة في تفسير التاريخ قبل ابن خلدون، أو وجدت كتابات سرديّة تقليديّة بعد ابن خلدون، فإنه من الناحية الرسميّة - على الأقل - يعتبر ابن خلدون مفرق طريق بين مرحلتين، وليس ذلك في الفكر التاريخي الإسلامي نحسب، بل في الفكر التاريخي الإنساني كله.

يقول المؤرّخ العالمي (روبرت فلنت) عن ابن خلدون في كتابه الضخم (تاريخ فلسفة التاريخ):

"إنه لا العالم الكلاسيكي ولا المسيحي الوسيط قد أنجب مثيلاً له في فلسفة التاريخ، هناك من يتفوقون عليه كمؤرخ، حتى بين المؤلفين العرب، أما كباحث نظري في التاريخ فليس له مثيل في أي عصر أو قُطر حتى ظهر فيكو بعده بأكثر من ثلاثة قرون.

مقدمة ابن خلدون:

قسم ابن خلدون مقدمته إلى الأجزاء التالية:

أ. **الديباجة:** وفيها ذكر ابن خلدون أنه طالع كتب المؤرخين فوجدهم "لم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها؛ فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب قليل" فوضع هذا الكتاب الذي يصف منهجه فيه قائلاً: "وسلكت في ترتيبه وتبويبه، واخترعته من المناحي مذهباً عجيباً.. وشرحت فيه من أنواع العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية..."

ب. **المقدمة:** وفيها يتحدث ابن خلدون في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها.

ج. **الكتاب الأول:** وفيه يتناول ابن خلدون طبيعة العمران والاجتماع البشري، وقد قسّمه إلى ستة أبواب: الباب الأول: في العمران البشري جملة وفيه مقدمات تتصل بالجغرافية الطبيعية والبشرية، أي أثر البيئة في أبدان البشر وأخلاقهم وأحوالهم.

الباب الثاني: في العمران البدوي والأمم الوحشيّة والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال، وفيه موازنة بين أهل البدو وأهل الحضرة وذكر خصائصهم، وكلام على العصبية والتغلب والملك.

الباب الثالث: وهو في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية، وفيه كلام عن نشأة الدول وتطورها قوة ثم ضعفاً، مع بيان أنه "إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدول على الهرم، وذلك أن للدول أعماراً طبيعياً كما للأشخاص.."

الباب الرابع: ويخصه ابن خلدون لظواهر العمران الحضري كنشأة المدن وبناء الهياكل وخرائب الأمصار.

الباب الخامس: وفيه يتناول ابن خلدون المعاش ووجوبه ووجوهه وأصنافه ومذاهبه.

الباب السادس: في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه، وفيه يصف العلم والتعليم بأنهما شيء طبيعي في العمران البشري، وأن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة،

ويضرب لذلك مثلاً حال (بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة)، لما كثر عمرانها في صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفتتوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل.."

وكل هذا يدل على أن مقدمة ابن خلدون، وما تلاها من أجزاء كتابه: العبر، تعد بحق المحاولة الأولى لإعطاء تاريخ عالمي معلل، والنظرية المتكاملة الأولى في التاريخ الإنساني لتفسير التاريخ.. وبالإضافة إلى كل ذلك، فإن ابن خلدون يحتل مكانته في ريادة علم تفسير التاريخ على أساس موضوعي بحث.

النظرة الإسلامية الخلدونية لحركة الحضارة:

في تفسيره للتاريخ يرى ابن خلدون أن التطور سُنَّة من سنن الله في الحياة الاجتماعية، ويقول: "إنَّ أحوال العالم والأم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول".

وأهم ما يوجه التطور الاجتماعي والعمراني عند ابن خلدون، هو نظريته في العصبية، فهي بمثابة المحور الذي تدور حوله معظم المباحث الاجتماعية والتاريخية عنده، وهو يتخذ من هذه الرابطة موضوعاً لدراسة شاملة وعميقة، فيتكلم عن مصدر العصبية، ويردها إلى الطبيعة البشرية؛ "لأن صلة الرحم طبيعي في البشر إلا في الأقل، ومن صفتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيهم هلكة".

والحضارة عند ابن خلدون تتعاقب، على الأمم في ثلاثة أطوار، هي: طور البداوة، ثم طور التحضر، ثم طور التدهور الذي يؤدي إلى السقوط.

- فأما طور البداوة فيمثل له ابن خلدون بمعيشة البدو في الصحاري، والبربر في الجبال، والتتار في السهول، وهؤلاء عند ابن خلدون لا يخضعون لقوانين مدنيّة ولا تحكمهم سوى حاجاتهم وعاداتهم.

- وأما طور التحضر، فهو طور تأسيس الدولة عقب الغزو والفتح، ثم الاستقرار في المدن، والتمكّن من العلوم والصناعات، وهذا الطور يقوم على الدين والعصبية، وقد عقد ابن خلدون لطور التحضر فصلاً بعنوان (فصل في أن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق).

- وأما طور التدهور، فيأتي في نهاية التحضر، بعد مرحلة الازدهار، ووصول الناس إلى مرحلة الانغماس في الترف، والتحلل في الأخلاق، وتغير العادات إلى المناكر، والتواضع عليها.

ويرى ابن خلدون أن مراحل تحضر الدولة هي ذاتها عوامل تدهورها، ذلك أن الحضارة وإن كانت غاية العمران، فهي في الوقت نفسه مؤذنة بنهاية عمره، وأول هذه العوامل هو العصبية التي تتسم بها الرياسة والملك، ولكن صاحب الرياسة يطلب بطبعه الانفراد بالملك والمجد، والطبيعة الحيوانية تدفعه إلى الكبر والأنفة، فيأنف من أن يشاركه أهل عصبية فيدفعهم عن ملكه، ويأخذهم بالقتل وسلب النعمة حتى يصبحوا بعض أعدائه...

وقد انتهى ابن خلدون من خلال نظريته في تفسير التاريخ -باستثناء عشرات النظرات والآراء الجزئية- إلى عدد من القوانين اعتبرت جوهر نظريته الحضارية وهي:

1. أن تطور التاريخ يخضع للتدافع والصراع والتفاعل.
 2. أن العصبية الدينيّة والقبليّة لها دور أساسي في بناء الدول.
 3. أن الحضارة كالكائن الحي في تطوره من البداوة إلى الحضارة ثم الاضمحلال.
 4. وأن الدول كالأفراد تخضع لدورة الحياة الفرديّة نفسها حتى تموت.
 5. أن العوامل الجغرافيّة والبيئيّة مؤثرة في التاريخ.
 6. أن للاقتصاد دورًا مهمًا في العمران البشري، وأن الاجتماع ضروري لحياة الناس؛ "فالواحد من البشر غير مستقل بتحصيل معاشه" والعمل عنصر أساسي للثروة.
 7. أن الدول تسقط بسقوط العصبية والولاء للدين.
 8. أن العرب (والإنسانية كلها) لا تصلح بغير الدين.
- وهكذا كان ابن خلدون عملاً، يقف متفردًا، كحدّ فاصل بين مرحلتين متميزتين في المنهج التاريخي، وقد أعطى بهذا المنهج المتفرد سببًا للحضارة الإسلاميّة، التي كان لها الفضل الكبير في الانتقال بالتاريخ من مرحلة الجمع إلى مرحلة التفسير، ومن منهجيّة التوثيق إلى منهجيّة التمحيص والتركيب الفلسفي الذي يمثل مرحلة جديدة في الرشد العقلي للإنسانيّة كلها.

نشوء الحضارات

[في ضوء التفسير الإسلامي للتاريخ]

عندما يصل (جنين الحضارة) إلى الأهليّة الكاملة للخروج إلى مرحلة الحياة، هنا نقف، لتأمل ذلك الكائن الصحيح البنية، الذي خرج من رحم شرعي سليم، والذي توافرت له كل الشروط الطبيعيّة الداخليّة، وكل شروط الحماية الخارجيّة لتتأمله يدب أمامنا متحركًا في درب التاريخ، كما دبّ على أرض الحياة (حيّ بن يقطان) الذي تخيّل ابن طفيل في قصّته المعروفة، فكيف يواجه هذا الكائن معضلات الحياة المختلفة الكّم والكيف؟ وكيف يصبح السيّد الذي يسخر طاقات الكون المذخورة؟ وكيف يصنع حضارة، ويحقق خلافة الله في الأرض -بالتعبير الإسلامي-؟

أجل.. لقد جاء إلى الحياة كامل العدة، فلا سبيل أمامه للتصل من حمل الأمانة وقبول مهمة الاستخلاف والاستعمار في الأرض!!

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: 39]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [يونس: 14]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165].

وإذا كانت العناية قد أحاطته -كاملة- في طوره الأول، فإنه في هذا الطور مطالب بأن يبذل أقصى الجهد المتاح، قبل أن ينتظر العناية، وحتى يستأهل هذه العناية.

وعندما يتخذ الإنسان قراره، فإنه على ضوء هذا القرار تتفاعل معه السنن الكونية، فإذا كان اتجاهه ماضيًا في طريق الهدم أو السكون، فإنه يوكل لنفسه، ويساعده في هذا السبيل القوى الشريرة في الكون وعلى رأسها (إبليس)) وجنوده، أما إذا كان القرار سليماً متجهاً إلى البناء والصعود في طريق الحضارة الشاق الطويل. . فهنا توضع المعادلة بطريقة أخرى توضحها الآياتان الكريمتان، قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]، والآيتان واضحتا الدلالة في إقرار أن للإنسان الدور الأول .. البدء في تغيير النفس حتى يغير الله بقية الأحوال. والبدء بالجهد حتى يحقق الله الهداية.

مرحلة التطور

[معنى التطور وأسس في ضوء التفسير الإسلامي للتاريخ]

إن تطورا ما في كائن من الكائنات أو في شيء من الأشياء، إنما يعني أنه ثمة تحولات داخلية ارتبطت بها تحولات خارجية طرأت على هذا الكائن أو على هذا الشيء، فكما يتطور الكائن الحي من مرحلة في حالة الوجود الداخلي أو الوجود الخارجي، كذلك فإن مجموعة الأشياء التي تكوّن وسائل الوجود الإنساني في دورة من الدورات الحضارية، تتطور هي الأخرى تطوراً داخلياً يصاحبه تطور خارجي، وهي تتقدم بمعدل مرتفع أو منخفض - نحو المرحلة التالية إلى أن تنتهي الدورة، فيحدث انقلاب مفاجئ، قد يؤدي إلى بدء دورة أخرى، وقد يؤدي إلى فناء الكيان الذاتي، والدخول - كعنصر من العناصر- في دورة معاصرة أكثر قدرة وحيوية على مجابهة التحديات.

وليس بوسع أحد أن يقف في وجه (التطور) بهذا المفهوم، ولا أن ينكر أن التطور ظاهرة من الظواهر وسمة من سمات الكائنات والأشياء، ولو أن مصطلح (التطور) ظل محافظاً على مفهومه الواضح المحدد، وبقي في حيزه الإيجابي الذي يسمح بتعايش مماثل متوازن مع ظواهر

الكون والأشياء الأخرى - لو أن مصطلح (التطوُّر) ظل على هذا النحو، لكان له تأثيره الأكثر وعياً وعمقاً في حركة الكائنات والأشياء في مستواها الفردي أو الجماعي.

معنى التطوُّر:

التطوُّر في ماهيته الأولى: حركة في الزمن، وحركة في الفكر، ترتبط هما حركة في اتجاه الأفضل .. إن حصول (الأفضل) وفقاً لمقياس موضوعي إنساني هو المعيار الثابت الذي يكن به أن نعترف بأن ثمة (تطوراً) وقع في أمر أو شيء، فإذا حدث الأفضل بطريقة نسبية في شيء، فأدى ذلك إلى تأخُّر ملحوظ في جوانب أخرى مرتبطة به، لزم اللجوء إلى مقياس يوازن بين خط التطوُّر وخط التخلف؛ ليتمكن الوصول إلى حكم نهائي يصوِّر بصدق المحصّلة الأخيرة بالنسبة للإنسان .

ولكي نقيس التطوُّر بمقياس عام موضوعي، فإننا لابد من أن نتوافر لدينا المعلومات الكافية عن الوقائع والأشياء والمفاهيم في شتّى حالات نموها، كما أننا لابد في البداية أن نكون متفقين على المقياس الذي نقيس به، ومن هنا تبدو أهمية الوعي بالتَّاريخ وبأطوار التطوُّر الحضاري وخصائصها في المراحل المختلفة، لكي نصل إلى أن (الأفضل) قد تحقَّق على نحو أسهل في ظل قيم معينة، ووقائع معينة، وخصائص ماديّة ونفسيّة معينة. التطوُّر بين السلب والإيجاب:

إن التقدُّم قد حدث (عكسيّاً) في الحقيقة لمعنى التطوُّر، وتاريخ هذا المصطلح، في ظل التقلصات الأخيرة والامتهان الذي أصابه - يكشف بجلاء أنه ليس شرطاً أن تكون كل دفعة إلى الأمام ... تقدماً وتطوراً. ولو كان صحيحاً ما يريد تقريره بعض البسطاء من أن كل حركة إلى الأمام تعني تطوراً بمعنى (التطوُّر الحضاري) لكان كل حاضر أفضل من كل ماضٍ، وكل مستقبل أفضل من كل حاضر .. ولو كان هذا التطوُّر حقيقياً - بهذا المعنى الزمني السلبى - وهم يقولون به ولا ينكرونه - لكان (الجهد الإنساني)، بل لكان الإنسان نفسه في الحقيقة - كائنًا سلبيًا في صناعة التطوُّر ... فضلاً عن أنه - في رأينا - القائد الحقيقي للتطوُّر الحضاري!!

وسنوجز طريقنا إلى الاستدلال (بالإنسان النموذج الذي قدمته الحضارة الإسلاميّة، وكيف تحققت في هذا الإنسان) أبرز أسس الخلق والإبداع والتطور الحقيقي ... - فهو إنسان (حر) في داخله. . رضي عقيدة وهب لها عمره دون ضواغط خارجيّة. - وهو إنسان مسؤول مسؤوليّة نابعة من (داخله) بتأثير إيمان قوي نحو الإنسان ونحو الكون.

وهو إنسان طموح ذو رسالة عالميَّة ممتدة في الزمان والمكان. . يعمل بإخلاص حقيقي على نشرها.

- وإمكاناته البشريَّة الذاتية التي وفرتها له (عقيدته الإسلاميَّة) جعلت منه الإنسان القادر على صياغة الحياة صياغة ملائمة، ودفعها -بإمكاناته النفسيَّة والفكريَّة والسلوكيَّة- في اتجاه التطوُّر الأفضل.

- وهو إنسان أخلاقي يهدف إلى تطوير الجانب الإنساني في الحياة، وتسخير الجانب المادي لخدمته، وإضفاء معنى كريم فسيح على الحياة البشريَّة المحدودة.

- وهو -قبل ذلك- إنسان توافرت له (الأرضية الممهدة) لإبداع التطوُّر، وهي تلك الأرضية العقائديَّة التي تدرك أعماق التَّاريخ وأبعاده، وتدرك عمق العصر وحاجاته، وتستشرف آفاق المستقبل في الوقت نفسه.

